نزوح الامير بشير الى مصر

في سنة ١٨٢٢

بقلم الاستاذ ميشال شبلي

« يظهر قريباً في عالم الطباعة مؤلف باللغة الافرنسية بقلم الاستاذ ميشال شبلي عن تاريخ لبنان من سنة ١٦٣٥ حتى سنة ١٨٦١ اي منذ نهاية عهد فخر الدين معن حتى زوال حكم الشهابيين .

وقد شاء المؤلف ان يلخص لنا باللغة العربية هذه الصفحة من كتابه : »

ونشب النزاع في تلك السنة (١٨٢٢) بين عبدالله باشا الخازندار حاكم عكا وبين درويش باشا حاكم الشام .

وقد كانت الاقطار العثمانية الفت مثل هذه المنازعات بين الحكام تدفع اليها المطامع والفوضى وضعف السلطة المركزية التي لم يكن لها من هم سوى استدرار المال بارهاق الشعوب الخاضعة لها .

اما في هذا النزاع فان التاريخ يروي له سبباً مباشراً يدعو للدهشة . فهو قد اثاره صيارف يهود انتقاماً . وحكاية ذلك هي ان عبدالله وكان فتى نزقاً تسنم الحكم في عكا في سنة ١٨١٩ وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من سنيه بمعاضدة « المعلم حاييم اليهودي » وكان هذا يدير خزنة عكا منذ عهد الجزار .

ولما بلغ عبدالله اربه كافأ المعلم حاييم بان خنقه ورمى جثته في البحر دون ما ذنب اقترفه .

وكان للمعلم حاييم اقارب في دمشق هم الصيارف سامون وزافايل من عائلة فارحي فاضمروا لعبدالله الانتقام . وكان هذان من ذوي النفوذ بسبب وفرة مالهم يكتسبون به من يشاؤون من رجال الدولة وقد رووا عن مبلغ نفوذهم انه لما اراد احد رجال الدولة ارهاقهم ضبط دفاترهم وارسلها الى الاستانة لاجل فحص قيودها ولكن ما لبث ان اعيدت اليهم دون اي ارهاق . ويمكننا

تفسير ذلك اما بصحة قيودها واما بكون المدققين لم يفهموا منها شيئاً واما على الارجح بان الرشوة لعبت دورها التقليدي لدى الحكام .

وقد استخدم سلمون ورافايل درويش باشا اداة لانتقامهم من باشا عكا وحماوه على محاربته وتجريد قوى الدولة عليه .

وكان على درويش ان يأمن اولاً جانب الامير بشير في حربه هذه وهو يعلم ان بشيراً تربطه بعبدالله رابطة صداقة وتحالف . فحاول اولاً تهديد بشير وارهابه بالاعتداء على قرى البقاع ولكن بشير جابهه بالقوة وبعد ان اوعز الى اهل البقاع بان يرحلوا الى قرى الجبل والى زحله ارسل ابنه الامير خليل على رأس رجاله فطرد المعتدين واسر عسكراً من الاكراد .

اما درويش فالقى القبض على اهالي الجبل الموجودين في الشام وارسل يخابر بشيراً بالمصالحة على الشروط الآتية :

١ً — رفع الضبط عن قرى اللبنانيين في البقاع على ان يكون الحاكم فيه « من تحت امر الامير كما كان قديماً ».

٢ً — يكون حكم وادي التيم للامير من آل شهاب وحكم بلاد بعلبك للامير من آل حرفوش يختارهما بشير .

وكل ذلك بغية ان يظهر بشير عدم تضامنه مع باشا عكا ..

ولكن بشير كان يعتقد بقوة هذا الاخير وكان قد بنى سياسته على موالاة حاكم عكا بعد ما ذاق الامرين من معاداة الجزار فولى وجهه شطر عكا .

وكان درويش يدرك صعوبة النيل من بشير في عرينه جبل لبنان وقد التف حوله الحزب الجنبلاطي واخلص له الامراء اللمعيون فضلاً عن موازنة الموارنة . اجل ، ان الحزب الخازني يرئسه آل عماد كان قليل الولاء للامير يعاضده بعض الامراء الشهابيين مثل فارس وسلمان ولدي سيد احمد وحسن ابن الامير اسعد وهم من ابناء عمومة بشير الذين يطمعون بالحكم ويزاحمون عليه . فارتأى درويش ان يستميلهم فقصدوا اليه وعين الامير فارس على حكومة وادي التيم وهي الطريق المؤدية الى عكا .

فاثار هذا التصرف قلق بشير واثار على الاخص قلق عبدالله الذي ارسل

عساكره لاحتلال راشيا . وقد خاطبهم بهذه الرسالة التي نقلها الينا حيدر في مؤلفه وهي تدل على اللغة التي كان يستعملها الولاة آنئذ . ومنها :

« ماذا يكون هذا الكلب الذي في راشيا حتى يقف قدامكم هذا الموقف . . . قفا مضى واضربوا راشيا بفرد راس . . . » الخ .

ولكن عساكر عبدالله باءت بالفشل في هذه الدورة الاولى من المعركة وقد ترك لنا الشدياق وصف انكسار عبدالله فيها قال :

« حينئذٍ ركبت الفرسان واطلقوا العنان وزجرت الشجعان واصطدم الجحفلان واصب على الفريقين الرصاص كالبرد ونعب غراب البين الذي لم يكن له مثلد وجردت السيوف اللمع وشرعت الذوابل الطلع ونصب عثير الدخان عليهم سرادق وخيلت ضوضاؤهم اصوات صواعق وما زالت ريح الحرب تهب السموم وتحطل نار السوم حتى استظهر الامبران (فارس وسلمان سيد احمد) على عسكر عكا . . . »

اما بشير فلما بلغه ذلك اطلق التنبيه بجمع الرجال وسار على رأس اربعة آلاف مقاتل قاصداً راشيا . « فتيقن عسكر الشام ان ليس له قدرة على القتال وعرض على الامير ان يقوم من راشيا بدون معارضة . فقبل الامير بذلك . ولما عادت العساكر الى الشام مخذولة صارت رجه وخوف عظيم وعزلوا جميع قرى الشام لداخل المدينة حتى الصالحيه والميدان . . . . » وقد روى الشدياق ان درويش استشاط غيظاً من هذا الاستسلام وشتم قادة عساكره وطرد الامراء اللبنانيين وزعماء الحزب اليزبكي من معسكره .

فازداد يقين درويش باشا بصعوبة النيل من عبدالله باشا ما دامت مؤازرة بشير له مستمرة وطريق لبنان موصدة دون زحفه . فاختار الوصول الى عكا عن طريق نابلس ووجه اليها قواته بقيادة كاخيته فيزو باشا . وحسب الامير منزلته فاخذ يفاوضه مجدداً للوقوف على الحياد لان « الدولة وجهت عليه (على درويش) ولاية عكا . . . » ثم ارسل اليه مع اسكندر كاتب رسالة « ليكون مطمأن البال وكل ما يطلبه منه يصير حسب ارادته حيث انه يتمكن في محله ولا يبدو منه اسعاف الى عبدالله » ولكن بشير كان قد عزم على ربط مقدراته بمقدرات حليفه في عكا فاعاد رسول درويش بدون جواب بل كان جوابه ارسال رجاله بقيادة ابنه خليل لمعاونة عبدالله فرابطوا على جسر بنات يعقوب .

لقد اخطأ بشير في موقفه هذا لان خطة الحياد التي سار عليها سابقاً في سياسته خصوصاً عند زحف بونابرت على عكا كانت الخطة المثلى للبنان كل ما استطاع سلوكها .

نعم ان الامير تظاهر مع عبدالله حفظاً للعهد الذي قطعه ولكنه كان يعلم ان الحكمة تقضي بعدم التورط في محاربة درويش اذا عزمت الدولة على معاضدته . فنهب الى عكا لمقابلة عبدالله « ودخل المدينة في عراضه وعز عظيم وقوست له المدافع والابراج » وهناك يقول حيدر نصح الامير حليفه « بعدم الزحف على الشام لانها باب الكعبة » بل كان مرامه من هذا كما قلنا نصح عبدالله بعدم الثبور ضد الدولة .

عندئذٍ دفع الغرور عبدالله الى عمل ندر وقوعه في التاريخ وقد يكون اقدم عليه لاجل حمل بشير على المحاربة في صفوفه ذلك انه «زور فرماناً سلطانياً باسناد حكم الشام اليه» وهو عمل يدل على غرور ذلك الشاب من جهة وعلى الفوضى في امور الدولة العثمانية آنئذٍ وسقوط هيبتها وارتباك امورها .

وبعد ان « اختلى الامير بشير بالوزير عبدالله نحو ثلاث ساعات » خرج الامير من عكا في مقدمة رجاله ورجال عكا وزحف على الشام عن طريق جسر بنات يعقوب وكان ذلك في ربيع سنة ١٨٢٢

اما عساكر الشام فخرجت وتحصنت في محلة المزه واجابت على محاصرة بشير باطلاق المدافع والزمبركات عندئذٍ شدد الامير الحصار من كل جانب واختار من رجاله نحو الالفين هجم بهم « هجمة واحدة فملكوا المزة وكانت خسائر اعدائه نحواً من ٢٥٠ قتيلاً و ٥٠٠ اسير واستولى عسكر بشير على وطاق العدو والجبخانه والمدافع وجميع الخيل ».

ولم تكن هذه المرة الوحيدة في انتصار بشير على ابواب دمشق بل اننا نعلم انه دخل المدينة فاتحاً في سنة ١٨١٠ ضد يوسف كنج باشا .

وقد كان بين الاسرى اتباع الينكيه من اللبنانيين فاطلق الامير سراحهم ولهذا « نسب اليهم الدمشقيون الخيانة واتهموهم بعدم محاربة مواطنيهم من اهل الجبل . . . »

وبعد هذا الانتصار ارسل بشير قوة بقيادة ابنه خليل يوصد الطريق على فيزو باشا وعساكره دون العودة من نابلس فتم لخليل النصر عليهم في قرية مرجانه.

○

كانت عاقبة هذا الفوز سيئة على بشير وعلى عبدالله باشا ذلك لان درويش اعرض للباب العالي عن موقفهما فصدرت الاوامر الى باشا حلب والى باشا مرعش وسواهما للمبادرة الى اعانة درويش بقوة تجاوزت العشرين الف رجل . فلم يبقَ امام بشير سوى العودة من ضواحي الشام الى بتدين ينتظر الحوادث وقد يكون ادرك آنئذٍ حيلة عبدالله بتزوير الفرمان السلطاني وقد سبق السيف العذل . . .

اما درويش باشا فكان عليه دائماً ان يأمن جانب امير لبنان عند زحفه على عكا ولم يكن ذلك هيناً عن طريق امتشاق الحسام فعمد الى سياسة التفريق وابعاد الزعماء عن بشير وكان ذلك اولا بمعاضدة الاميرين حسن وسلمان شهاب المطالبين بالحكم يؤازرهم الحزب اليزبكي فولاهما على لبنان ونزل بعساكره على نبع عنجر في البقاع « احتساباً على الجبل . . . » — ولما كان يعلم ضعف الحزب اليزبكي سعى باستمالة الشيخ بشير جنبلاط العضد الاكبر للامير وكان ذلك بواسطة المعلمين سلمون ورافايل فارسلوا الى الشيخ الجنبلاطي «بان يوجه لهم من قبله شخصاً يعتمد عليه لكي يفهموه المتوقع فوجه لهم يوسف العكاوي وبعد مفاوضات رجع بكلام مناسب تحت بعض الشروط . . .»

ذلك ان هم بشير جنبلاط كان كبيراً بتلافي سيادة الحزب اليزبكي وهو خصمه الالد . وكان الشيخ مخلصاً للامير في موقفه هذا كما كان طيلة سيرته السابقة فحاول اولا المصالحة بين الامير وباشا الشام عن يد سلمون اليهودي ودامت المراسلة بهذا الصدد شهراً. ولكن الامير « ابى ذلك لانه لا ينكث عهده مع عبدالله باشا . . . » — عندئذٍ فكر الشيخ بتولية امير شهابي موالٍ للحزب الجنبلاطي اقصاء للحزب الاخر ووقع الاختيار على الامير عباس الذي كان قد تولى الحكم اكثر من مرة في عهد الجزار.

اجل ان بشيراً قبل عن مضض هذا الحل ولكنه اضمر للشيخ الجنبلاطي الحقد الكامن من جراء موقفه هذا وقد انتقم منه بعدئذٍ الانتقام الهائل بالاعدام .

○

كان درويش ناصباً خيامه مع عسكره في قرية المرج في سهل البقاع عندما اقبل اليه الامير عباس مع مائة خيال من رجال الشيخ جنبلاط « فسر درويش سروراً زائداً حيث انه كان فاهماً انه لا يقدر على تلك الجبل ولا على تغيير الامير بشير وان ما وعده الحزب اليزبكي هو أفك وبهتان. . . » ولم يكن بوسع الاميرين حسن وسلمان وكانا مقيمين في جديتا سوى الامتثال لهذا التدبير فسارا في ركاب عباس عند عوده الى الجبل « حتى مفارق الطرق فودعوه وذهب حسن الى وادي شحرور وسلمان الى الحدث ودخل عباس دير القمر حاكماً . . . وقد فرح الاهالي بذلك التدبير لانهم كانوا خايفين انه اذا حكم الاميران سلمان وحسن يدخل عسكر الدولة الى البلاد ويكثر الظلم والتعدي. . . »

فاعرض درويش للدولة « بانه تملك جبل لبنان بالسيف وهدم قلاعه الحصينة . . . » على ان جل ما فعل هو هدم قلعة قب الياس التي كان قد حصنها فخر الدين ثم الشهابيون بعده ولم يدخل درويش المذكور اراضي الجبل .

○

اما بشير فقد كان يود البقاء في الجبل ينتهز الفرص للمقاومة كما قاوم خليفة عبدالله باشا في عكا وفاز بالنهاية . ولكن تصرف بشير جنبلاط فت في عضده فغادر الجبل واراد الاعتصام في بيروت ولكن اهل بيروت « كانوا لا يرضون تملك اهل الجبل فاوصدوا دونه الابواب واعلنوا الموالاة لدرويش باشا » .

لقد روى بعض المؤرخين ان بشير قد خابر محمد علي باشا وطلب اللجوء اليه منذ عوده من معركة المزه احتساباً للطوارئ وكان لمحمد علي اطماع ومرام في البلاد منذ زمن طويل فرحب بحضوره وبعد ان اقام بشير مع رجاله زهاء خمسة ايام في حرش بيروت استأجر في اثنائها المركب الافرنسي بواسطة التاجر اوبان لكي يقله الى مصر فأبحر اليها من ساحل خلده بتاريخ ٦ آب سنة ١٨٢٢ مع ولديه الاميرين امين وخليل وزهاء المائة من رجاله .

هذا بينما كانت عساكر الدولة تضع الحصار على عكا ذلك الحصار الذي استمر تسعة شهور وانتهى بفوز عبدالله بفضل مداخلة الامير بشير لدى محمد علي باشا . وهذا موضوع بحث آخر .